فدائية في عام ١٩٦٩ ، قال لقضاته في المحكمة العسكرية : « لقد طردتموني من وطني عندما كنت رجلا مسالما . علمتموني انكم لا تعرفون الا لغة السلاح ، فعدت الى هنا والسلاح في يدي » (ص ٩٤) . وقال زملاء قبلاني في نفس المحاكمة : « اننا لسنا نادمين على ما فعلناه وكل ما يؤسفنا اننا (منذ اعتقالنا) تعرقل عملنا لخدمة قضيتنا العادلة» . وقال بدر دعنه للمحكمة العسكرية في القدس : « كعربي فلسطيني اريد تحرير العرب وتحريركم انتم اليهود، ايضا من الصهيونية والامبريالية ..»(ص ١١١). وقال محمد درويش من قرية العيسوية في قضاء القدس لقضاته — جلاديه: « ... انني أفخر بانتمائي الى فتح . انه لشرف عظيم لي أن أقاتل من أجل وطني وضد الاحتلال الاسرائيلي لارضي ... » (ص ١٦٨) .

هذه أمثلة قليلة فقط لمواقف الصمود التي ترويها المؤلفة . وهي تقف أيضا عند مواقف الصمود التي أبدتها امهات المعتقلين ، مثل ام جابر وأم صبحي وغيرهما . لقد قلن للمحامية عندما علمن ان سلطات الاحتلال مستعدة لاطلاق سراح أولادهن بشرط أن ينزحوا : « قولي لاولادنا اننا نفضل الموت هنا على النزوح » !

ووالدة يوسف عاجوري مثلا قالت للمحامية مبتسمة بعد أن أصدرت المحكمة حكما جائرا ضد ولدها : « عندما تقابلين يوسف في السجن قولي له انني لم أبك . انك لن تجدي لدي دمعة واحدة » ! (ص ١٢٠) .

وتسجل المؤلفة بطولة الاولاد والشيوخ والنساء في مقاومة الاحتلال ، وتذكر على سبيل المثال ، قصة الطفل رياض امين جابر الذي وضع العبوات الناسفة قرب مبنى قيادة الجيش الاسرائيلي في القدس فانفجرت العبوات في يده ومزقته اربا . ولم يكن عمره حينذاك الا عشر سنوات .

وتروي الكاتبة قصة نضال السجناء العرب في السجون الصهيونية ، اضراباتهم وتضامنهم ، ومن جهة اخرى تفضح سلطات الاحتلال في أنها لا تكتفي بالحكم الجائر بالسجن بل تحاول الانتقام من المناضلين بعد سجنهم وتحاول قتل نفسهم . هذا بالاضافة الى استغلالها لهم كقوى بشرية عاملة « لاغناء اقتصاديات اسرائيل » ! وتشغلهم طوال اليوم مقابل عدد من السجائر . ولا يفوت المؤلفة ان تذكر ان سلطات الاحتلال جعلت من المحاكم العسكرية مصدر ربح لها فهي « تستخدم المحاكم للاثراء من الغرامات الباهظة » .

معارضة بعض اليهود

تبرز الكاتبة دور القوى التقدمية في اسرائيل وخاصة الشيوعيين في معارضة الاحتلال وتدعو الى زيادة عددهم . فهي تقول لليهودي العادي الذي تستغله السلطات الصهيونية في حمل السلاح وقيادة البلدوزر ضد العرب وبيوتهم وأرضهم :

« ألا تفكر بمستقبل أولادك في هذه المنطقة ؟ ألا تفكر بالبيت الذي قد يحاولون بناءه هنا وأنت تعمل الان على هدم أساساته بيديك . ألا تعي أن معلميك هم أعداؤك ؟! » (ص ١٣) .

انها تسجل أسماء وأعمال من يمارسون القمع والبطش ضد العرب في الارض المحتلة وتصفهم على انهم يعملون على « توسيع الهوة بين الشعبين » ، وفي نفس الوقت تبرز أعمال القلائل من اليهود الذين قد تؤدي أعمالهم الى « اقامة الجسور بين الشعبين » وهي تريد ان يكون كتابها هذا « خدمة للنضال من أجل فتح صفحة جديدة في العلاقات الاسرائيلية العربية على اساس العدل لكل الشعوب » .

انها تخاطب العربي مبينة له « الوجه الاخر » لشعبها وتخاطب اليهودي شارحة له انه لن تكون له حقوق ومستقبل في المنطقة الا اذا ضمنت حقوق ومستقبل الشعب الاخر . « مقاومة الاحتلال لم تتوقف ولو لدقيقة واحدة . ولكن المحتل خدع ببعض مظاهر السكوت الخارجية ، وهدأ عندما رأى ابتسامة مصطنعة هنا او هناك . ولم يستمع الى هدير البركان تحت السطح ... » وهي تريد هنا تذكير الاسرائيليين انها وغيرها من اليهود التقدميين حذروا من البركان قبل وقوعه كنتيجة حتمية للاحتلال .

وتعرب الكاتبة عن خيبة أملها لان طبيعة المحتل لم تتغير حتى بعد درس اكتوبر وتقول محذرة في خاتمة الكتاب : « ... ان الذين لم يسمعوا الخطوات المقتربة للسادس من اكتوبر والذين تبلد حسهم حتى بعده ، ربما سيفتحون عيونهم في يوم جديد ... في يوم احتلال جديد » .

يوسف حمدان